الفصل الثالث

- من اخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « التوكل » .
- من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « الرزق » .
- من اخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « القرآن شفاء » .
- اخطاء مشهورة وتصحيحها « غاية الزواج وهدفه » .
- اخطاء مشهورة وتصحيحها « قوامة الرجل على المراة » .

من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام
التوكل

صان الله قرآنه عن التحريف . فما بلغ لرسول الله ﷺ عن طريق الوحى هو ما دون فى المصحف الذى تداوله المسلمون الأولون من صحابة الرسول ، ويتداوله المسلمون من بعدهم جيلا بعد جيل ، حتى اليوم . وصيانة الله لقرآنه الكريم عن التحريف نعمة تميز بها هذا الكتاب السماوى . حتى يبقى على الدوام نوراً يهدى به من يشاء : « ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ[1] » وحتى إذا انتكست الانسانية وسيطر عليها ظلام الطفولة فى فترة ما ، وهو ظلام الأنانية والمادية ، بقى الأمل فى أن تخرج الانسانية من جديد من انتكاسها وظلام طفولتها إلى نور الرشد ومستوى الانسانية الفاضلة ، وهو مستوى الانسانية المتعاونة على الخير وفى سبيل الوجود المشترك بين الناس جميعا .

عادات غيرت المفاهيم :

وبينما بقى القرآن الكريم مصونا عن التحريف والتبديل ، لم يبق المسلمون كما كانوا ، ولم تبق جماعتهم اللاحقة هى جماعتهم فى فهم القرآن وفهم ما ترمى إليه مبادؤه : وذلك لأنه طرأت على جماعة المسلمين جيلا بعد جيل ، عادات وتقاليد لم تكن للمسلمين الأول . وبحكم تأثر المسلمين اللاحقين بهذه العادات والتقاليد تغيرت أفهامهم فى بعض ما جاء به القرآن الكريم تغيراً يتلاءم مع هذه العادات والتقاليد ، ولكنه يختلف مع أفهام السابقين الذين عاشوا فى وحيه . وتبعاً لتغير أفهامهم تغير سلوكهم وتغيرت نظرتهم فى الحياة ، عن ذى قبل . وأصبحت المبادىء الإسلامية التى من شأنها أن تحمل الإنسان على السعى والعمل والإيجابية يتخذ منها المسلم الذى أخطأ فهمها ، تكأة يتكىء عليها فى القعود عن السعى والتراخى فى العمل .

---

(١) الانعام : ٨٨ .

ومن هذه المبادىء التى أخطأ فهمها كثير من المسلمين متأثرين فى هذا الخطأ بما لا يتصل بالإسلام من عادات وتقاليد طرأت على جماعتهم : مبدأ التوكل .. والرزق .. وكون القرآن شفاء ..

التوكل هو اتباع الطريق المستقيم :

ونعرض للتوكل كما جاء فى القرآن الكريم وعلى نحو ما فهمه المسلمون الأول فكان دافعاً قوياً لهم نحو العمل فى الحياة ، ونعرض كذلك لفهم المتأخرين إياه على نحو كان سبباً لتقاعدهم وتراخيهم وإهمالهم .

ويقول الله تعالى : « ... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1] ». فالتوكل على الله هو الاعتماد عليه . والاعتماد على الله ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله ، وإنما باتباع الطريق المستقيم الذى خطته رسالة الوحى ، وهى ما فى القرآن الكريم من وصايا ومبادىء وأوامر ونواه . التوكل على الله والاعتماد عليه يبتدىء من الأخذ فى السبل بعد الأخذ فى تنفيذ مشورة القرآن ونصحه . ويقول الله لرسوله الكريم : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » . ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن . وعندئذ ، أى عندما يأخذ الانسان فى تنفيذ نصح القرآن يكون الله فى عونه . وهذا هو معنى قوله تعالى : « فهو حسبه » : أى كافيه العون والتأييد . فعون الله وتأييده للإنسان مقرون بالأخذ فى تنفيذ مشورته ونصحه ، وهو ما جاء به قرآنه الكريم .

هذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها جاء فيها طلبه التوكل . وهذا ما فهمه المسلمون الأول . ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعى والعمل ، وكانوا غير متراخين ، كما كانوا غير سلبيين فى الحياة .

ولكن كثيراً من المسلمين المتأخرين فهموا أن التوكل هو إلقاء بمسئولية

---

(١) الطلاق : ٣

الإنسان فى السعى والعمل فى الحياة كلية على الله . وعندئذ يقعد الإنسان المتوكل عن العمل ، والله حسبه وكافيه فى المون . عندئذ يعينه الله على ماذا ؟ يعينه على القعود عن العمل ؟ يعينه على الركود وعدم الحركة ؟ يعينه على تجميد طبيعته ؟.

إن التوكل على الله بهذا المعنى ليس توكل القرآن ولا المسلم الأول . والقرآن إذا فهمت مبادؤه على هذا النحو لا يصلح لتوجيه الإنسان . وحاشا قرآن الله عن ذلك . فهو « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد[1] » .

والإنسان خُلق ليعمل وليسعى، خلق ليتحرك ذات اليمين وذات الشمال، خلق ليغالب ويقاوم ، خلق ليحيا . وما حياته إلا سلسلة من السعى والحركة والعمل والمغالبة والمقاومة .

والإسلام جاء فحسب هداية لطبيعة الإنسان ، التى من شأنها أن تسعى وتعمل وتتحرك . جاء ليوجه سعى الانسان ويوجه حركته . والتوكل الذى أوصى به المسلمين هو دافع مؤكد للانسان على السعى والحركة والعمل ، دافع آخر على ذلك. لأن المسلم الذى سلك طريق الحق سلك الطريق المأمون الموصل ، وأخذ فى سبيل تنفيذ مشورة القرآن وسار فى هدايته. ومشورة القرآن وهدايته من وحى الله العليم الخبير ، والرؤوف الرحيم . ولذلك لا يضل السالك لهذا الطريق ولا يتعثر من شىء فى ضوء هدايته . وذلك رشد الله وعونه لمن توكل عليه .

---

(١) ابراهيم : ١

من اخطاء المسلمين فى فهم الاسلام :

الرزق

يقول الله تعالى فى سورة هود : « وَمَا مِنْ دَابةٍ فِى الأَرْضِ إلا عَلى الله رِزْقها ، وَيَعْلم مستقرَّها ومستودَعَها ، كلٌ فِى كِتاب مُبين[1] » . وسورة هود تهتم أولاً وبالذات بالعدل الإلهى فى جزاء الله لأولئكم الذين أنكروا نعمه وكفروا برسالته فى الصور المختلفة . وهى لذلك تقص أخبار الرسل السابقين ، وما تحملوه فى سبيل أداء رسالتهم ، كما تصور موقف المعاندين المنكرين وما حل بهم من جزاء ، يتمثل فيه العدل الإلهى تمثلا واضحاً .

وإذا كان جو هذه السورة هو هذا الجو فما ذكر مما يتعلق بصفات الخالق ونعمه على خلقه من شأنه أن يوصل إلى تفرده بالعبادة وإقناع البشر بما بدأت به السورة فى قوله تعالى : « ألاَّ تَعبُدُوا إلا الله ، إنَّنِى لَكُمْ مِنْه نَذِيرٌ وَبَشِير[2] » . ومن شأنه أيضاً أن يوضح أن موقف المشرك فى العبادة عندئذ موقف المتعنت المتثبت فى عناده . وقوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابةٍ فى الأَرْضِ إلا عَلى الله رزْقَها ... » : آية من آيات هذه السورة التى تعدد خصائص الله سبحانه وتعالى ونعمه بالنسبة لخلقه . ومفادها أن كل كائن يتحرك على وجه هذه الأرض مرتبط فى رزقه بإرادة الله إرتباطاً وثيقاً . والله من جانبه يؤكد أنه سيتكفل بهذا الرزق ، على نحو ما جاء فى قوله : « عَلَى اللهِ رزْقُهَا » . هو قد تكفل بالرزق لكل دابة على الأرض ، أى لكل كائن متحرك على الأرض . ولكنه يتكفل لهذا الكائن المتحرك بالرزق إن استخدم خصيصته التى اختصه بها الخالق ، وهى الحركة . وهذا ما يعبر عنه قوله : « دابة » .

وكأن هناك تقابلا ، أو كأن هناك مقدمة ونتيجة . وهما : عندما يتحرك الكائن ،

---

(١) هود : ٦ . (٢) هود : ٢ .

الذى أعده الله بقوة الحركة ، يتكفل الله له بالرزق . وغير الإنسان من الكائنات المتحركة يتحرك بالغريزة ويدفعها القوى . ودفع الغريزة هو الأصل فى الحركة فى اتجاه واحد وهو اتجاه تحصيل الرزق . والإنسان أيضاً من الكائنات المتحركة التى تدب على الأرض وتتحرك فوقها ، ولكنه كائن له اختيار وإرادة يستطيع أن يجد فى حركته ويستطيع أن يميل وينحرف فيها . ولذا رزقه فى سعته وضيقه وفى اطمئنانه فى الحياة بهذا الرزق أو عدم اطمئنانه به ، وفى تمتعه به كثيراً أو قليلا : مرتبط بنوع حركته واتجاهه فيها . وحركته فى الحياة لا تكون مثمرة ثمرة نافعة ويسعد بها إلا إذا كان متبعاً فيها خطوط الرسالة الإلهية .

وقد كانت سورة يونس قبل سورة هود : تحكى من قبل الله تعالى ذلك الاطمئنان النفسى والسعادة والبهجة التى يسعد بها الإنسان المتحرك حركة نافعة مثمرة . وهو ذلك الإنسان المؤمن العامل . ثم جاءت سورة هود تحكى الشقاء الذى يصيب الإنسان الآخر صاحب الحركة غير المثمرة ؛ وهو الإنسان الجاحد بنعم الخالق . فالحركة المثمرة إذن ، والسعى المجدى أساسان فى الحصول على الرزق وأساسان فى قيمة التمتع به .

ولم يكتف الإسلام بذلك من المؤمن بإيمانه . بل طلب منه العمل مع الإيمان وهنا نجد آيات القرآن التى وردت فى وصف المؤمنين تقرن الإيمان بالعمل كشرط يترتب عليه الثواب أو كتمهيد تعقبه حالة الاطمئنان النفسى . يقول الله تعالى . « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله[1] » . ويقول : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب[2] » . ويقول « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما »[3].

---

(١) النساء : ١٧٣ .
(٢) الرعد : ٢٩ .
(٣) طه : ١١٢ .

وعمل الصالحات هو كل عمل فى الحياة لا انحراف فيه عن النهج القويم . ومن بين الصالحات تحصيل الرزق ، من طريقه المشروع .

هذا هو فهم المسلم الأول فى تكفل الله برزق الكائنات الحية ، حسبما ورد فى هذه الآية . فهم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وفهمه صحابته رضوان الله عليهم . وكم من أحاديث تروى فى الحث على العمل فى سبيل تحصيل الرزق . وقد فضل الرسول حال الذى يؤدى العبادة فى غير تزايد ومبالغة على حال ذلك الذى يقوم آناء الليل وأطراف النهار تاركاً شأن نفسه على غيره أو مهملا أمر من يعوله. وأصبح شعار ذلك الوقت : العمل . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

فهم خاطىء :

ولكن بعض المتأخرين من المسلمين وقف بنظره عندما ورد فى قوله تعالى : «عَلىَ اللهِ رزقُها» وأخذ من الآية كلها كفالة الله الرزق لعباده ، وترك أنه فى سبيل الحصول على الرزق : عليه أن يسعى ، وأن سعيه سعياً مستقيما ، طبقاً لتعاليم الله ووصاياه . ترك أنه كائن يتحرك ويدب على الأرض وأن واجبه أن يترك ذاته تتحرك وأن يتدخل بإرادته فى توجيه حركته فحسب .

فهم بعض المسلمين المتأخرين أنه ينبغى للمسلم كى يحصل على الرزق أن يتردد على المسجد ، أو يكرر دعاءه لله ويستنجد به رافعاً بغيته نحو السماء ، وأنه يكفى أن ينتمى إلى المسلمين بالاسم وينطق معهم الشهادة ، وأغفل أنه يجب عليه أن يعمل وأن يكون فى عمله مخلصاً لله فلا يؤذى غيره. أغفل أنه يجب عليه أن يعمل عملا صالحاً .

إن الله يتكفل بالرزق لمن يسعى وأعلن هذا التكفل فى صيغة الإلزام فقال: «على الله رزقها» ليحفز الناس على الانتفاع بطبيعتهم البشرية فى الحركة والسعى، وليس ليحول بينهم وبين خصائص طبيعتهم التى خلق البشر عليها . إن الإسلام لا يرتد بالطبائع عما لها . وإنما ينميها فحسب بالهداية الإلهية فى التوجيه .

من اخطاء المسلمين فى فهم الاسلام :

القرآن شفاء

يقول الله تعالى : « وننزل مِنْ القرْآن مَا هُو شِفَاء ورَحْمة للمؤْمِنِين ولا يزيد الظّالمين إلا خساراً [1] » . بمثل هذه الآية يحدد الله جل شأنه وضع القرآن وأثره على نفوس الناس فهو بالنسبة لمن آمن به هدى ، يهديه إلى الصراط المستقيم وهو صراط النفس . التى تتخلص من الأحقاد والاثرة والتى لاتصد عن سبيل الخير ولا تبغى الفساد والاعوجاج فى المجتمع الذى تعيش فيه . فإذا اهتدت به خرجت من ظلمات الانحراف فى الإنسانية سواء فى التصور الفكرى ، أو السلوك العملى ، وخرجت من ظلمات الضلال فى السير والسعى إلى نور الاستقامة واعتدال الاتجاه . « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد [2] » . وعندئذ تكون النفس التى آمنت واهتدت به قد سلمت مما يحيلها إلى نفس مريضة ليس لها الوضع الصحيح لمستوى الإنسانية . وعندئذ يكون القرآن لها شفاء ، عن طريق هدايته إياها .

وإذا كان القرآن لها شفاء فهو رحمة لها ونعمة عليها . وهذا معنى قوله تعالى : « ونُنَزِّلُ مِنَ القرْآن مَاهُوَ شِفَـاء ورَحمة للمؤْمِنِين » .

ولكن هذا القرآن نفسه الذى هو للمؤمنين شفاء ورحمة ، هو للكافر به — من وجه آخر — عامل فى زيادة تبعاته بسبب انحرافه عن الاستقامة ، وبالتالى عامل فى زيادة خسرانه . ذلك لأن الذى كفر به وبهدايته وبتوجيهه هو فى واقع أمره

---

(١) الاسراء : ٨٢ .   (٢) ابراهيم : ١

متحد للدخول فى الوضع الصحيح للإنسانية ، متحد لأن يكون ذا مستوى إنسانى رفيع بعيد عن الحقد والأنانية وبعيد عن الخطأ فى الإدراك ، وبعيد عن الانحطاط فى السلوك العملى . فكفره بالأخذ بأسباب الاستقامة والهداية ضاعف وزره وضاعف مسئوليته فى الاستمرار فى مباشرة الأخطاء . إذ هو الآن ضم إلى سوء مستواه فى الإنسانية الذى كان له ، إصراره على الجمود فيه وعدم الأخذ بما ينقله إلى محيط المستوى الصالح ، بل ضم مع ذاك إصراره على الصد عن طريق الخير وسبيل الله ، وإصراره على الاعوجاج والفساد . عندئذ : «فأذَّنَ مُؤذِّن بينَهم أنْ لعنَةُ الله عَلَى الظَّالمين . الذين يَصدُّون عَنْ سَبيل الله ويبغُونَها عِوَجاً . وهُم بالآخرَةِ كافِرُون ⁽¹⁾». هو ظالم لنفسه بحرصه على بقائه فى المستوى الدنىء للإنسانية وظالم لغيره بتحديه المستوى الرفيع فيها ، وبصده بهذا التحدى عن طريق الخير فى المجتمع . وإذا أضاف إلى ظلم نفسه ظلم غيره فقد زاد فى حسابه خسارته . وهذا هو معنى قوله تعالى : « ولا يزيد ـ أى القرآن ـ الظالمين إلا خساراً » . والظالمون هنا هم من شرحهم قول الله تعالى : «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون» .

والقرآن بهذا المعنى كتاب شفاء للمؤمنين ، أى كتاب هداية إلى الصراط المستقيم ، صراط العزيز الحميد . وكان كتاب هداية لأنه يصور الحق : «إنَّا أنزَلنَا إليْكَ الكتابَ بالحقِّ — أى معبراً عنه وموحى به — فاعْبد الله مُخلصاً له الدِّين . ألا لله الدينُ الخالِص ⁽²⁾» .

ولأنه الحق كان واجب الاتباع ، وكان فى اتباعه رحمة ونعمة على المتبع :

---

(1) الاعراف : ٤٥ . (2) الزمر : ٢ .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا ، لعلكم ترحمون » . « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

هذا هو كتاب الله كما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما فهمه أصحابه رضوان الله عليهم وكما عملوا به : «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما[1]» . القرآن إذن كتاب : من آمن به وجب عليه أن يعمل عملا صالحاً ، طبقاً لما ورد فيه . فهو كتاب للإيمان والعمل معاً .

اعتقاد خاطىء :

ولكن بعض المسلمين قلد فى تحريف وضعه على هذا النحو ، واعتقد أنه كتاب شفاء : على معنى أنه يتداوى به من أمراض البدن إذا مرضت ، وأنه كتاب وقاية لا يتعرض حامله لأذى مادى . وكاف فى الحصول على آثاره من الشفاء والوقاية أن يكتب بعض آياته ويذاب المداد الذى كتبت به فى قليل من الماء يتعاطاه المريض المحموم ، أو أن يلف المصحف الشريف فى غلاف يحمله من يريد التحصن ضد الأمراض وأنواع الإيذاء الأخرى .

نعم القرآن شفاء ولكنه شفاء للنفس من مرض الحقد والأنانية ، وضلال الاعتقاد بالخرافة ، والاعوجاج فى السلوك .

نعم القرآن وقاية ولكنه وقاية للنفوس من التردى فى أمراض الإنسانية ووقاية لها من الايمان بالكهانة والصدفة وكل مايقعدها عن السعى فى العمل والحركة والتضحية فى سبيل المثل والقيم . هو كذلك لمن آمن به وترجم إيمانه

---

(١) الاسراء : ٩ ، ١٠ .

إلى عمل . هو كذلك لمن اتحد باطنه مع ظاهره ، فظاهره يعبر عن باطنه ، وباطنه يدفع ظاهره لأن يكون مرآة له . هو كذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات معاً .

إن البدن يصح إذا صحت النفس أولا . وصحة النفس فى صفائها ونقاوتها . ومهمة القرآن الأولى هى تصفية النفوس وتنقيتها : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون» ..

« ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »[1] .

---

(١) الأعراف : ٤٣ .

أخطاء مشهورة وتصحيحها :

غاية الزواج وهدفه

يقول الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً[1] » .

جعل القرآن الكريم غاية الزواج هى أن يسكن أحد الزوجين إلى الآخر ، أى يطمئن كل منهما إلى الثانى. وعبر عن هذه الغاية بالسكنى ـ بدل الاطمئنان ـ ليفيد أن الزوجة هى بمثابة السكن . والسكن من شأنه أن يأوى إليه الإنسان وبالإيواء إليه ينقطع حال التعب والكد التى تصيبه من حركة الجسم فى سبيل السعى. ولكن سكن الزوجية هو سكن نفسى من شأنه — كما يريد الاثنان ـ أن يهيء للنفس الراحة ويدفع عنها القلق. وما أشبه قلق النفس بحركة الجسم فى إيجاد التعب، بل هو أشد منها فى إثارة المشقة والألم .

مسكن مادى ، هو البيت والمنزل ، تأوى إليه الأجسام لتستريح وتهدأ بعد حركتها فى السعى ، وسكن نفسى معنوى ، وهو الزوجية ، تدخل فيها النفوس لتحصل راحتها وتبعد عنها القلق، والاضطراب . فالنفس إذا التقت بنفس أخرى ورغبت كل واحدة منهما فى الالتقاء بالثانية رغبة صادقة تنسى ما عندها من هم ، وما أصابها من مشقة فى سعى ، أو ما حل بها من ضيق . وهى إذن بهذا اللقاء هادئة ، لا يخالجها قلق الهم والمشقة والضيق ، ومطمئنة لأنها لا تفكر فى متاعب صادقتها ، وهى الآن ساكنة ، ولكنها ساكنة إلى من تحب أن تسكن إليه ، وتطمئن إلى لقائه .

هذا هو ما تفيده تلك الآية الكريمة فى تحديد غاية الزواج وهدفه . وإذن

---

(١) الروم : ٢١ .

ليس الزواج مجال قلق ومجادلة ، وليس مجال منا كفة ومشا كسة ، وليس مجال مساومة . ليس مجالا فيه حركة أخذ ورد ، وشد وجذب . لأنه نفسه سكنى أحد الزوجين إلى الآخر .

وأى شىء يخرج الزواج عن هذه الغاية ، يجعـــل الزوجية مثاراً للقلق واضطراب النفس البشرية ، يجعلها مثاراً لقلقها فى العواطف . واضطرابها فى النزاع والخاصمة لا يقره الإسلام كدين حدد غاية الزواج بما سبق وجعل هذه الغاية آية من آيات الله فى خلقه كتلك الآيات الأخرى من مودة الناس بعضهم لبعض ورحمة بعضهم لبعض .

الاسلام يدفع إلى الانسجام ويكره البغضاء والنزاع . يدفع إلى المودة وإلى أكثر من المودة . يدفع إلى الرحمة والإحسان . ولذا لا يقر أن يخرج الزواج عن غايته من السكنى والاطمئنان . وكل تصرف ينمى معنى السكنى فى الزوجية ، معنى الاطمئنان ، معنى الرضا ، معنى الثقة بين الزوجين، معنى المحبة ، معنى السرور بلقيا أحد الزوجين بالآخر — كل تصرف ينمى ذلك هو تصرف محمود من وجهة نظر الإسلام . وكل تصرف يسيء إلى هـذه الغاية الإنسانية الكريمة هو تصرف مبغض إليه لا يرضى عنه .

المبدأ العام لتزوجية :

وإذا كان الإسلام بعد تحديده لغاية الزواج على هذا النحو قد أباح أن يضم الرجل إلى زوجته .. ثانية فثالثة ..فرابعة — فهو لا يوجب هذا الضم ويفرضه، بل يرخص به فحسب لضرورة توجيه . والرخصة بشىء ما من شأنها أن تستخدم بحيث لا تخل بالغرض الأصلى من مبدأ عام . والمبدأ العام هنا أن يكون هدف الزوجية الوفاق والانسجام وإبعاد الفلاقل والخصومات النفسية . والترخيص إذن بالجمع بين أكثر من زوجة واحدة .. إلى أربع: يجب أن يكون فى دائرة هذا المبدأ العام

للزوجية لا يخرج عنه ولا يتنافى معه . ولذا يقول الله تعالى : « . . . فإنْ خِفْتم أنْ لا تعدلوا فواحدة[1] » . وليس العدل المطلوب هو العدل فى الإنفاق ، ولا فى إعداد المسكن المادى ، ولا فى مرات الزيارة واللقاء وإنما هو قبل كل شىء فى الانسجام وعدم إثارة القلق النفسى ، وعدم الإيذاء بالنزاع والخصومة .

ولا يحقق هذا العدل إطلاقاً إذا كان تعدد الزوجات للترفيه والرفاهية أو كان للإفادة من كسب المرأة المادى فى العمل الذى تؤجر عليه ، أو كان لحل أزمة الرجل فى فترة خاصة من فترات حياته اليومية . . . أو نحو ذلك مما من شأنه أن لا يُبقى على الوفاق والاطمئنان بينه وبين كل زوجة من زوجاته وبين كل زوجة وأخرى معها فى عقد زواجه بها . ولذا أوجب الاسلام أن يقصر الزواج عندئذ على واحدة .

والإسلام فى كل شأن يتعلق بتصرف الإنسان يكل أولاً إلى الانسان نفسه : تقدير هذا التصرف فى حدود المبادىء العامة ، ويربط حل هذا التصرف وحرمته بشعور الانسان وإحساسه الداخلى . ولذا يقول هنا : « فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » . فجعل أساس وجوب الاقتصار على واحدة : شعور أولئكم الذين يقدمون على الجمع بين أكثر من واحدة .

ومن هنا قد يكون ظاهر الجمع بين أكثر من واحدة مباحاً حلالا ، ولكن فى واقع أمره منكر بغيض إلى الله . وذلك إذا انتفى العدل ، انتفى الانسجام والوفاق ، وحل محل ذلك : النزاع والقلق والاضطراب . لأن هدف الزوجية حينئذ لم يتحقق ، وأصبحت الزوجية سبيلا إلى الانفكاك فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وسبيلاً إلى التنافر والشحناء ، بدلاً من السكنى والاطمئنان .

والإسلام لم يأت ليحدد كل حالة فردية بين المؤمنين به فى كل جيل من

---

(١) النساء : ٣ .

الأجيال . بل جاء فقط بمبادىء عامة وربط تطبيقها بضمير الإنسان الفرد وشعوره النفسى . فإذا أتى فريق من المسلمين وأساء رخصة تعدد الزوجات ، وأخرج الزوجية بذلك عن غايتها السامية فقـــد أخطأ فى فهم الاسلام وفى تطبيق مبادئه معاً .

وإذا جاء آخرون ليسوا مؤمنين به وشرحوا الهدف من تعدد الزوجات بأنه تنفيس لحيوانية الرجل ، وسبيل إلى إشباع متعته الجنسية فقد أغفلوا عمداً : أن الزواج فى الإسلام هو للنفوس قبل الأجسام ، وللقلوب قبل الأبدان ، وللبشرية والإنسانية قبل الحيوانية .

اخطاء مشهورة وتصحيحها :

قوامة الرجل على المرأة

يقول الله تعالى: « الرجال قوَّامُون عَلَى النِّسَاء بما فَضَّل الله بعْضَهم عَلى بَعْض وبما أنفقُوا مِنْ أمْوالهم[1] » . ومعنى أن الرجال قوامون على النساء أنهم راعون لأمورهم فى الأسر التى كونوها معاً . فقوامة الرجل على المرأة فى الزواج هى رعاية وتدبير أمر الزوجية وليست سلطة يستبد بها الرجل . ووكل الإسلام أمر الرعاية والتدبير لشؤون أسرة الزواج إلى الرجل دون المرأة ، لأن المرأة تحمل ، وتلد ، وتحضن من تلد .

وكل هذه أعمال من وحى طبيعة المرأة ومن أخص أنوثتها كطرف ، وحالها إذن دائر بين : الحمل ، والولادة ، والحضانة . وهى حال تشغل كثيراً من فراغها ، وتستنفد الجانب الأكبر من نشاطها وإمكانياتها ، وبالتالى لا تدع لها فراغاً ولا استطاعة لممارسة شؤون الأسرة فى الحياة الخارجية ، وتحصيل الرزق فى مجال هذه الحياة . وهى الحياة القائمة على الكفاح والمناضلة . والنجاح فيها مرهون بالتمرس والاحتمال .

أما الرجل فلم تعد طبيعته الخاصة ، وهى طبيعة الرجولة ، لأن يشارك المرأة فيما كان خاصاً لها بحكم أنوثتها . ولذا فالوقت لديه لم يشغل بعد ، وإمكانيته ونشاطه لم يستنفدا أيضاً . وهنا كان تكليفه برعاية الأسرة وتدبير أمرها . وعندئذ سيشغل وقته وسيتجه بإمكانياته الإنسانية إلى تلك الرعاية وهذا التدبير .

ولو أن الإسلام أضاف رعاية شأن الأسرة وتدبير أمرها إلى المرأة ، مع

---

(١) النساء : ٣٤ .

ما تقضى عليها طبيعتها كامرأة من : حمل وولادة — وحضانة — لأجحف بالمرأة ولأجحف كذلك بالرجل .

أما إجحافه بالمرأة فلأنه كلفها فوق طاقتها ، أو بما تضيق به طبيعتها . وأما إجحافه بالرجل فلأنه لم يفد من طبيعته، وتركه يلهو ويعبث بفراغه وإمكانياته. والمصير هو إفلاس الحياة الزوجية منذ بدئها . لأنه تكاليف ضد الطبيعة البشرية.

فما نظمه الإسلام من جعل رعاية شأن الأسرة وتدبير أمرها يقع على عاتق الرجل وحده هو النظام الطبيعى لشخصية تميزت خصائص كل منها عن الأخرى.

ولهذا عللت الآية القرآنية إسناد رعاية الأسرة فى الزواج إلى الرجل بما يتصل بخصائص طبيعته التى أشرنا إليها ، فتقول: « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » . أى بسبب ما تميزت وفارقت به طبيعة أحدهما طبيعة الآخر ، وبالتالى بسبب تكفل الرجال بالإنفاق على الأسرة الذى هو وليد المفارقة بين الطبيعتين .

ولأن الإسلام بذلك يريد فقط تنظيم العلاقة بين الزوجين حسب خصائص طبيعتهما ولم يشأ من قريب أو بعيد أن يمتهن أحد الطرفين فى الزيجة القائمة بينهما : أكد التكافؤ فى الحقوق والواجبات بينهما فقال : « وَلهنّ مِثْل الذِى عَلَيْهن بالمعْرُوف[1] » . فما للنساء من حقوق وواجبات هى مثل التى للرجال سواء بسواء . وأما قوله فى نفس الآية : « وللرجال عليهن درجة » فلم يقصد من هذه الدرجة التى للرجال على النساء : سوى الرعاية وتدبير الأمر ، على ماذكرت الآية السابقة : « الرجال قوامون على النساء » .

والتكافؤ فى الحقوق والواجبات بين الزوجين هو حتما تكافؤ بحسب

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

ماتستطيعه طبيعة كل منهما ، وما هى له مهيأة ومعدة إعداداً بدنياً ونفسياً .

* * *

إن تنظيم العلاقة بين الزوجين كما أقامه الإسلام على أساس من خصائص الطبيعتين للذكر والأنثى — هو أيضاً لصيانة الغاية من الزوجية ، هذه الغاية التى وضحها الله سبحانه وتعالى فى قوله : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [1]». فالغاية من الزواج الاطمئنان النفسى وتأكيد المودة والتعاطف بين الزوجين . وهذه الغاية لا تنمو ، بل ولا تتحقق إذا قصد الإسلام من قوامة الرجل على المرأة أن يكون سيداً والمرأة مسودة ، بالمعنى الذى يحاول فريق من الناس أن يشيعه ضد الإسلام ، أو بالمعنى الذى يريد بعض الذين يخطئون فهم الإسلام أن يطبقوه فى حياتهم الزوجية العملية .

إن الاسلام لم يكره أحد الطرفين فى عقد الزواج على الدخول فيه ، ولم يلزم أحد الطرفين كذلك بالاستمرار فى الحياة الزوجية ، طالما كان هناك خطر مترقب أو محقق من الاستمرار فيها . الإسلام أراد الحياة الزوجية حياة مطمئنة مثمرة ، أرادها حياة كريمة مهذبة : «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[2]» ، ومن هنا لايصح أن يفهم من الإسلام — إذا ما أسند رعاية شؤون الأسرة وتدبير أمر التوجيه والإنفاق عليها للرجل — أنه يريد للرجل أن يكون مستبداً وأن يكون سيداً ، وبالعكس يريد للمرأة أن تكون مستذلة ومسترقة . وإلا فقيم تحديده لهدف الزواج باطمئنان وتأكيد المودة والرحمة ، وفيم طلبه : « وعاشروهن بالمعروف » .. « ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا » .. « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ؟.

الإسلام لم يسلب بعقد الزواج شخصية أحد الطرفين كما لم يهمل خصائص

(١) الروم : ٢١ .
(٢) البقرة : ٢٢٩ .

طبيعتها فيما نظمه من علاقة بينهما . لم تزل شخصية المرأة بعد الزواج هى شخصيتها قبل الزواج ، لها حرية الرأى وحرية القول وحرية الاعتقاد ، وحرية التصرف فى مالها الخاص حتى مايصل إليها من زوجها لايحل له أن يسترجع شيئاً منه إلا برضاً وطيب نفس منها : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة — أى عطية — فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً »(١) .

قامت أسرة الزواج فى الإسلام للتقارب والتواد والتعاطف، وليست للاستغلال ولا لممارسة شهوة الاستبداد والاسترقاق . وقوامة الرجل على المرأة هى رعايته لأمرها بحكم طبيعته ، وتفرغه للحياة الخارجية .

وهذا هو الإسلام فيما يريده فى تنظيم الأسرة .

---

(١) النســـاء : ٤ .